# أحداث سورية مرآة لهدف الوحدة

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

قد يرى المشاهد الخارجي في التغيرات السياسية التي تخضع لها سورية العربية وتتوالى على مسرح حياتها، ظاهرة من مظاهر القلق وعدم الاستقرار، أو دليلا على عجز سياسي أصيل وبنية اجتماعية غير متماسكة. وكثيرا ما نسمع من هنا وهناك، في الصحف العربية والعالمية، وعلى أفواه الناس وأقلام الكتاب، أن الاحداث القلب والعهود الحول توميء بعجز سورية العربية عن أن تجد الصيغة الملائمة لحكم نفسها.

ولسنا ننكر أن القواعد الاساسية للحياة السياسية المستقرة لم تكتمل بعد في سورية أو في أي بلد عربي آخر وعلى رأس هذه القواعد الصيغة الديمقراطية الصحيحة للحكم والمتكأ الشعبي المعتمد على المنظمات النقابية والفلاحية والسياسية والحزبية والقيادات الجماعية. غير أننا لا نستطيع أن نقول ان ما تشكو منه سورية في هذا المجال يفوق ما تشكو منه غيرها من الدول العربية. ومن هنا كان من الواجب أن نمضي الى تفسير أعمق وأصدق لهذه التقلبات السياسية التي خضعت لها سورية منذ الحكم الفرنسي حتى اليوم.

والحق اننا اذا تجاوزنا الاعراض الظاهرة والاسباب القريبة ونبشنا ما وراءها من محركات عميقة ومن وقود دائم، وجدنا أن سبب الاسباب في هذا كله دافع أصيل رافق حياة سورية العربية منذ التاريخ البعيد، ونعني به دافع العمل للوحدة العربية. فسورية منذ عرفت النضال، ضد الاتراك العثمانيين وضد الفرنسيين وضد الحكم الرجعي المعادي لارادة الشعب، تبحث عن مطلب أساسي هو مطلب الوحدة وتقيم نضالها على أساس النضال العربي المشترك، وتنظر دوما الى الافق البعيد، أفق الامة العربية الواحدة. ولا حاجة بنا الى أن نذكر بالجمعيات الثقافية والسياسية التي قامت في سورية وناضلت ضد الحكم العثماني وبالادب الثوري الذي ظلت الحناجر ترددده سنوات طوالا وما تزال، أدب النضال من أجل كيان العرب. ولا حاجة الى أن نعود الى موقف سورية أيام الانتداب من قضايا الاقطار العربية الاخرى وتجاوبها مع الاحداث التي كانت تجري فيها وانتصارها لتلك الاحداث ونظرتها دوما الى معركة العرب أنى كانوا كمعركة واحدة متفاعلة. ذلك أننا لا نريد من وراء هذا أن نشيد بدور سورية القومي وروحها العربية، بمقدار ما نريد أن نؤكد حقيقة أساسية لها معناها وشأنها، وهي أن سورية اذ وضعت نفسها منذ البداية في اطار الموقف العربي وتبنت العمل للوحدة، لخصت بأحداثها السياسية الكبرى التي مرت بها مراحل قضية الوحدة وخطوات نضالها، وكانت المرآة لكل ما يجري في الوطن العربي من تقدم نحو هذا الهدف. وأحداثها السياسية هي في الواقع أحداث النضال من أجل الوحدة العربية وتقلبات الحكم فيها تعكس في حقيقة الامر ما يخضع له النضال في سبيل الوحدة من مد وجزر، وتعثر واقدام. ومن الواضح لكل من يريد أن يحلل الامور تحليلا عميقا أن أحداث سورية السياسية لم تحمل يوما طابع الاحداث المحلية، ولم تأخذ شكل المداواة لعلل جزئية تتصل بسورية وحدها، بل أخذت دوما وأبدا معنى الاحداث العربية، وانعكس فيها نضال الامة العربية في سبيل معركتها الكبرى، معركة الوحدة.

ومن هنا لا نغلو اذا قلنا ان سورية كانت دوما المعيار والمقياس في ميزان القضية العربية، وان قلقها ترجمة لقلق أشمل في معركة الوحدة العربية جملة. وما شهدناه في سورية من اضطراب في الحكم وغليان في النفوس منذ معركة فلسطين خاصة، تعبير عن الوضع الجديد الذي خلقته المأساة في الوطن العربي كله، وعن الهزة الكبرى التي أثارها دخول اسرائيل في الجسم العربي. لقد كشفت نكسة فلسطين للوطن العربي كله عن حيوية النضال من أجل الكيان العربي الموحد وقيمته القومية الكبرى في استرجاع ذلك الجزء المغتصب من الارض العربية وفي حماية سائر أجزاء البقعة العربية. وبينت للشعب العربي في الوقت نفسه أن أداة هذا النضال من أجل الوحدة ومن أجل القضاء على جرثومة اسرائيل وسائر أمراض الاستعمار والتخلف، هي الخلاص من الفئات التي ارتبطت مصلحتها بمصلحة التجزئة والاستعمار والتي كانت سببا في ضياع فلسطين. وأخذ هذا المعنى الجديد للنضال العربي كامل معناه في سورية، وأصبحت سورية مسرحا لاحداث لا تهدأ تبحث عن الحل الاصيل، الحل الذي يضع سورية في طريق الوحدة ويقضي على العناصر المستغلة للفساد المقتاتة من الانفصال.

ولم يكن هذا الموقف في الواقع موقفا سوريا، بل كان ترجمة للموقف العربي كله وتعبيرا عن الارادة التي أخذت تحرك جماهير الشعب العربي في كل مكان. ولم تكن الانقلابات بالتالي، في معناها العميق، انقلابات سورية، وانما كانت مرآة للواقع العربي المتفجر وللارادة العربية الثائرة، وصورة للحقيقة العربية في كل مكان. ولهذا لم يكتب الشعب الاستقرار والبقاء لكل من أراد أن يجعل من هذه الانقلابات العربية في معناها العميق انقلابات سورية، تعود بالامور الى قوقعة التجزئة ولا تعدو أن

تستبدل أشخاصا بأشخاص . لم يكتب الشعب البقاء لامثال حسني الزعيم أو الحناوي أو الشيشكلي ، لانهم جعلوا من الانقلابات التي تمثل في الواقع تلك الارادة الشعبية العربية انقلابات تتجاهل المعاني الثاوية وراءها والدوافع التي حركتها ، نعني دوافع النضال العربي المشترك والارادة الشعبية المصممة على أهداف الوحدة وعلى التخلص من الفئات التي تقف في سبيلها .

ولهذا ظل النضال مستمرا وظلت المعركة قائمة لا تهدأ الى أن قامت وحدة الجمهورية العربية المتحدة ، وتم التحقيق الفعلي للنواة الاولى للوحدة العربية الشاملة. ومن هنا لم ينظر الشعب العربي في سورية الى ذلك الحدث العظيم نظرته الى حادث سياسي كغيره من الاحداث ، بل وجد فيه الثورة الحقيقية التي تستجيب لاهدافه وتحقق ارادته وتنهي القلق الاليم الذي كان يتهدده دوما لتجعل منه قلقا خصيبا منتجا .

وقد كان أهم أسباب اللقاء الذي خلق الوحدة ، انطلاق مصر الثورة من الموقف العربي الذي حرك سورية دوما . فثورة مصر أدركت ادراكا عميقا المعاني الحقيقية لنكبة فلسطين . والذين قادوا تلك الثورة كانوا ممن عاشوا تلك المأساة ورأوا بأعينهم تآمر الفئات الرجعية والعميلة مع اسرائيل والاستعمار ضد قضية فلسطين . ومن هنا ارتبطت في أذهانهم منذ معركة فلسطين خاصة تلك الصلة الوثيقة بين النضال ضد الحكام الفاسدين المستغلين للفساد والتجزئة والاستعمار وبين تحرير الوطن العربي من الاستعمار واسرائيل . واكتشفوا بارادتهم الثورية حقيقة المعركة العربية : انها معركة واحدة ضد الاستعمار واسرائيل ، قوامها النضال المشترك من أجل القضاء على أعوان الاستعمار واسرائيل ومن أجل الخلاص بالتالي من التخلف والتجزئة . فالتخلف والتجزئة هما ركنا الاستعمار واسرائيل وأعوانهما ، وهما موئل هؤلاء جميعا وحماهم .

وهكذا انطلقت ثورة مصر من الموقف العربي السليم، وأدركت دور القومية العربية في معركة البلدان العربية المختلفة وفي معركة مصر ، وقفزت الى مستوى العمل من أجل المصير العربي الواحد . وكان هذا الموقف هو العامل الاساسي الذي جمع بين سورية ومصر . وزادت في تعميق معاني النضال العربي المشترك وادراك حيوية الوحدة العربية ، معركة القناة وما وكدته من أهمية اطار الوحدة في حل مشكلات كل قطر عربي .

غير أن العمل لتثبيت دعائم الوحدة التي قامت بين سورية ومصر ، ظل دون مستوى ارادة الشعب العربي ووعيه لاهمية هذه الوحدة . وقلقت سورية من جديد ، وتجهم وجهها ، وانتقلت من تلك الفرحة العارمة بولادة الجمهورية العربية المتحدة ، الى ألم عميق ، حين جاء ما حققته الوحدة دون مطامحها القومية الكبرى ، ودون ما كانت ترتجيه لتلك الوحدة من خصب ونماء واتساع . لقد أرادت تلك الوحدة نموذجا مغريا يقدم أقوى صورة عن معنى ذلك الهدف القومي الجبار ، فاذا بها ترى الادواء تنهش بها من كل جانب ، واذا بها ترى رواسب الانفصال والتجزئة في النفوس تنخر في ذلك الكيان ، واذا بها ترى الجذوة توشك على الانطفاء . ورغم أن عهد الوحدة قدم أكثر من دليل على ما تفود اليه الوحدة من قوة ومنعة في الاطار العسكري والسياسي ، ظلت صورة الوحدة مقصرة في أعين الناس عما يرجى لها ، وأصيبت الوحدة بمرض مبكر .

ولسنا الان في معرض الحديث عن اسباب ذلك المرض ، ولا نريد من وراء الوقوف عنده أن نحمل المسؤولية فئة دون فئة أو أن نتهم أناسا دون أناس، والذي نريده هو ان نبين ، ضمن اطار حديثنا ، ان الاضطراب الذي أصاب سورية بعد الوحدة وبعد تقلص قواها هو أيضا اضطراب يرجع الى المحرك الاول والاخير للحياة السياسية في سورية ، نعني مدى تحقيق هذه الحياة السياسية لمعاني الوحدة العربية ومدى قدرتها على الانطلاق في طريق الكيان العربي الشامل . والمتقري لمشاعر الناس أثناء عهد الوحدة ، يلمس في النهاية شيئا أساسيا يثوي وراء كل ضروب النقد التي كانوا يوجهونها ، هو شعورهم بأن معنى الوحدة لم يكتمل ، وبأن التجربة قصرت عن كامل مداها.

وقد استغلت الفئات المعادية للوحدة في الاصل، هذا القلق الذي عصف بنفوس جماهير الشعب وهذا التساؤل عن صدق الوحدة مع ذاتها ، فجمعت كيدها وضمت جهودها المتضافرة ، جهود الرجعية والشعوبية والاستعمار واسرائيل ، وضربت ضربتها وفصمت الوحدة.

وههنا أيضا نلتقي من جديد بالخيط الرائد المحرك لكل ما يجري في سورية ولكل احداثها السياسية. لقد حسب هؤلاء المعادون للقضية العربية أن في وسعهم أن يستغلوا قلق الشعب على الوحدة ليجعلوا منه قلقا من الوحدة وليتخذوه مناسبة لاقتلاعها من جذورها. غير ان الاحداث تأتي لتبين مرة اخرى ان قلق سورية قلق قومي، وأن قلقها على اكتمال الوحدة أيام الوحدة يجعل قلقها عند قتل الوحدة أعمق وأشد. لقد أثارتها الصورة الناقصة للوحدة ، فكيف لا يثيرها فصل الوحدة . ولقد غضبت حين يسرت الوحدة لاعدائها مجال التخريب والدس، فكيف لا تغضب حين ينتصر هؤلاء الاعداء على الوحدة ؟ ولقد أرادت أن تكون الوحدة النواة بداية انطلاق واتساع للوحدة الكبرى ، وآلمها أن تتقلص قدرتها على الامتداد بنتيجة أخطائها ، فكيف تقبل بعد ذلك بالعودة الى قوقعة الحياة السورية الضيقة المعزولة عن دنيا العروبة كلها ؟

والاحداث التي قامت بعد الانفصال تتحلق كلها حول هذه الحقيقة . انها أيضا تعبير عن الموقف الاساسي المحرك للاحداث في سورية الثاوي وراء تقلبات الاوضاع السياسية فيها ، نعني موقف النضال من اجل الكيان العربي الموحد . ولقد كانت تجربة الانفصال في الواقع أعمق التجارب التي مرت بسورية وأفصحها دلالة عن هذا المعنى الوحدوي لحياتها كلها . فالانفصال نفسه لم يجرؤ ان يعلن معاداة الوحدة ، بل زيف شعارها . وادعاء العمل للوحدة السليمة، وتضخيم أخطاء الوحدة الماضية ، وكل وسائل التضليل والتزوير ، لم تكن قادرة على ان تغير الموقف البدهي الاصيل للشعب العربي في سورية ، موقف من لا يقبل بالانفصال مهما تكن دوافعه . وقال الشعب كلمته صريحة واضحة : لا يمكن أن يكون الانفصال نتيجة أخطاء الوحدة، ولا يمكن أن يقوم بديل عن الوحدة غير الوحدة . فلا الديمقراطية قادرة على ان تكون بديلا للوحدة ، ولا الاشتراكية يمكن أن تتخذ معناها بدون الوحدة . وبديل الوحدة الناقصة هو الوحدة المكتملة الخصيب ، هو النضال في سبيل تلك

الوحدة المكتملة . أما الانفصال فلا يلد غير الانفصال ، وموقف التجزئة ، مهما يحاول أصحابه تبريره ، يظل بداية انحراف كبير وأساس أخطار متوالدة متكاثرة . ومخاطر أخطاء الوحدة تأتي من الاصرار عليها وعدم تصحيحها.

لقد كانت في نفوس الاستعمار واسرائيل والفئات الرجعية والشعوبية المعادية للكيان العربي الموحد ، بقية من شك في مدى عمق شعار الوحدة في نفوس أبناء البلاد العربية وفي نفوس أبناء سورية . حتى اذا حاولوا الاستهانة بهذا الشعار وخاضوا معركة مستميتة من أجل وأده الى الابد ، أدركوا أن شكوكهم باطلة وأن تقديرهم مغلوط وأنهم أمام تيار شعبي جارف لا يغالب . وحسب هؤلاء أن العودة الى التجزئة والاجماع عليها بين حكومات المنطقة المحيطة بسورية ومن ورائها الاستعمار واسرائيل يمكن ان يضمن لسورية استقرارا لم يضمنه الاجماع على الوحدة . فاذا بهم يرون أن الذين يجمعون على التجزئة هم أعداء الامة العربية ومستغلوها ، وأن الذين يجمعون على الوحدة هم جماهير الشعب العربي وقواه الاساسية. ولا تمضي فترة حتى ينهار الطوق المصطنع الذي أراد أن يحمي التجزئة ، فيحطم العراق أسسه وتجهز سورية على البقية الباقية منه .

وتقوم الثورة في سورية دليلا جديدا على تلك القوة الاساسية المحركة للاحداث فيها . تقوم هذه الثورة صدى لثورة الامة العربية من أقصاها الى أدناها على نكسة الانفصال وتعبيرا عن ارادة القضية العربية . وتأتي الاحداث في سورية مرة أخرى معبرة عن حقيقة ما يحركها ، نعني الترجمة العملية لاهداف الامة العربية والصورة المشخصة لارادة الشعب العربي . تأتي هذه الثورة رائعة مخيفة: انها ثورة رائعة في تعبيرها عن انتصار ارادة الوحدة، وانها ثورة مخيفة اذ تلقي على الثورة في سورية وعلى الثورات التحررية في سائر أرجاء الوطن العربي مهمة كبرى هي مهمة الاستجابة الكاملة الصحيحة لمعنى هذه الثورة، وتوجيه الاحداث وجهة تجعلها في مستوى الارادة الكبرى المحركة لها . انها تقول من جديد ان الاستقرار مكتوب للعهد الذي يستطيع ان يجعل من ارادة الوحدة ورغائبها حقيقة في مثل علوها وخصبها . وان القلق لا بد أن يكون الجواب الجديد على كل تقصير في اعطاء هذه الارادة شكلها المنتج الفعال . والتجربة الطويلة في سورية توحي بشيء واحد لا ثاني له : وهو أن ارادة الشعب العربي في سورية وارادة الشعب العربي في كل مكان تقف كالبنيان المرصوص مع كل حكم قادر على أن يعطي للوحدة معناها الاصيل ومدلولها الخصيب وعلى أن يجعل منها وحدة ولودا تحمل منذ نواتها الاولى طاقات الوحدة العربية الشاملة وتعبر عن شأنها الكبير في كيان العرب ومكانتهم. غير أن ارادة الشعب هذه ارادة صارمة قاسية لا تقبل أي جمود في معاني الوحدة، ولا ترتضي أي انحراف عن معانيها الاصيلة.

ومن هنا كانت مهمة أي حكم أن يقيم الروابط الوثيقة الكاملة بينه وبين جماهير الشعب ، وأن يجعل من هذه الروابط قوام عمله الصحيح في سبيل أهداف هذا الشعب . ولا ينقذ أي حكم من أن يقصر عن اهداف الجماهير وعن الهدف الاساسي لها ، هدف الوحدة الخصيب النامية ، الا اعتماد ذلك الحكم على تلك الجماهير وافساحه المجال امام تنظيماتها القادرة على نقل ارادة الشعب والحيلولة دون تخلف الحكم عن تلك الارادة.

ان جوهر القلق الذي أصاب العهود المتتالية في سورية انفصال هذه العهود عن الارادة الشعبية ، تلك الارادة التي تعمل من اجل الوحدة بوصفها الهدف الكبير من أهداف الامة ، والتي تريد تلك الوحدة من عملها وبنائها اذا هي أرادت أن تحافظ على جوهرها وأصلها ومعناها السليم .

وكل حكم لا يلمس هذا الدافع الاساسي الثاوي وراء أحداث سورية ، دافع البحث عن اطار للوحدة وأداة للنضال في سبيلها تجعلها في مستوى ما يعلقه الشعب العربي عليها من آمال ، لا يمكن أن يكون أكثر من حدث بين الاحداث ، ولا يتأتى له أن يصبح الثورة الباقية الراسخة.

ومن هنا تنطلق الثورة الجديدة في سورية ، ومن هنا تصمم منذ لحظاتها الاولى على ان تكون الثورة الحقيقية القادرة على انهاء سلسلة الاحداث والهزات ، عن طريق وضع سورية نهائيا في طريقها الصحيح ، طريق وحدة قوية تحقق آمال الشعب فيها ، ويكون الشعب العربي في كل مكان هو بانيها وحاميها .

ومن هنا ينطلق أيضا العمل المشترك الذي بدأ بعد ثورة سورية ، بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق وسورية ، بالاشتراك مع سائر الدول العربية المتحررة، في سبيل وضع الصيغة المنتجة للاتحاد بين البلدان الثلاثة، وفي سبيل غرس البذرة النامية المتوالدة للكيان العربي المنشود .

**عبد الله عبد الدائم**


**صدر حديثا :**

# الحضارة العربية الجديدة وحتمية الثورة

**تأليف**

**أنور قصيباتي**

* ان حضارة جديدة تلوح في الآفاق البعيدة ، وان العرب هم الذين سيبدعون هذه الحضارة .

* ان الثورة هي الطريق الوحيد لاقامة هذه الحضارة، ولن تتحقق الا بالتدخل الارادي

الثمن ٢٠٠ ق.ل ـ ٢٥٠ ق.س

**منشورات دار الاداب**